تلقي اللغويين العرب المحدثين للسانيات النصية

Reception of modern Arabic linguists for textual linguistics

د– بوعمراني نسرين

المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة : bounsrn80@gmai.com

تاريخ الاستلام: 2019/08/16 تاريخ القبول: 2019/09/27 تاريخ النشر: 2019/10/03

ملخص: يطلق الدكتور إدوارد سعيد على انتقال النظريات الفكرية من وسط فكري إلى آخر "سفر النظريات" ويعتبرها أمرا طبيعيا، ينجر عنه حراك ثقافي وفكري واسع، ويفتح المجال أمام إشكالات علمية ومنهجية تستدعي مجالا من البحث والتحليل ينجر عن هذا اللقاء بين فكرين مختلفين؛ فالنظريات لا تولد من العدم بل تنبثق من رحم سياقات فكرية محددة ولا تحل حين تحل على وعاء فارغ، بل تضاف إلى مخزون فكري وثقافي سابق يرتبط به المجتمع ارتباطا روحيا. واللسانيات النصية علم انبثق من الحوض المعر في الغربي وورد إلينا وافدا مثلما عرف طريقه إلى ثقافات إنسانية مختلفة. ولم يكن ذلك من أحقاب بعيدة؛ فالمتتبع لسيرورة اللسانيات النصية يجدها تعود إلى النصف الثاني من القرن العشرين.

كلمات مفتاحية: اللسانيات؛ التراث؛ النصية؛ التبني؛ اللسانيون العرب.

Abstract:

Dr. Edward Said calls for the Transfer of intellectual theories from the intellectual center to the "theory of theology" and considers it a natural phenomenon, which gives rise to a wide cultural and intellectual movement, and opens the way for scientific and methodological problems that require a range of research and analysis that evades this meeting between two different ideas; From nothingness, but from the source of specific intellectual contexts, which can not be solved when they are resolved on an empty receptacle, but rather are added to a previous intellectual and cultural stock to which the society is spiritually connected. Textual linguistics emerged from the Western knowledge as we were told by different human cultures. This was not so far away; the follower of the process of linguistic linguistics finds it back to the second half of the twentieth century.

Keywords: Linguistics; Scripts; Heritage; Adoption; Arabic Linguists.

المؤلف المرسل: بوعمراني نسرين، **الإيميل**: bounsrn80@gmai.com

1. مقدمة:

لا تولد النظريات من العدم، بل تنبثق من رحم سياقات فكرية محددة، ولا يشذ ظهور لسانيات النص عن هذا الناموس ، فاللسانيات النصية علم انبثق من الحوض المعرفي الغربي وورد إلينا وافدا مثلما عرف طريقه إلى ثقافات إنسانية مختلفة. ولم يكن ذلك من أحقاب بعيدة ولكن المتتبع لسيرورة اللسانيات النصية يجدها تعود إلى النصف الثاني من القرن العشرين. وتعددت البحوث والمؤلفات خاصة منها التمهيدية التي تعرفنا بالوافد الجديد، والتطبيقية التي يحاول أصحابها تطبيق النظرية النصية على النصوص العربية بمختلف أنواعها خاصة منها النصوص الشعرية والقرآن الكريم. ومع هذا الاقبال على هذا التخصص نجد نخبة من اللغويين تظل متحفظة تنظر إلى هذا العلم بعين الريبة والشك ولا ترى فيه ما يصلح للغة العربية؛ إذ أنه صمم للغة غير العربية ونحو غير نحوها، أو بدعوى أن اللغة العربية قد بلغت بنحوها وأسسها ما لا تحتاج بعده إلى تغيير أو تعديل، فيما ذهبت فئة ثالثة إلى اعتبار الكثير من أسس هذا العلم نتاجا عربيا أصيلا سبق إليها العلماء العرب بمختلف تخصصاتهم واستشهدوا على ذلك بنماذج مختلفة . وسنستعرض في البحث نظرة اللغويين العرب للسانيات النص وحجة كل منهم.

وتكمن أهمية البحث في الكشف عن تلقي اللسانيين العرب للمنتج اللساني النصي، وإظهار الممارسة اللسانية النصية التراثية ومقارنتها بنظيرتها الغربية. ويطرح البحث جملة من الاشكاليات أهمها:

كيف تلقى الباحثون اللغويون العرب لسانيات النص؟ وهل تقبلوها تقبلا حسنا؟ أم نظروا إليها على أنها علم دخيل على اللغة العربية؟ هل سبق العرب فعلا إلى الدراسات النصية ؟

2.الدرس اللساني قبل النصية :

تمركزت الدراسات اللسانية إلى وقت غير بعيد حول الجملة بحثا وتنظيرًا، ومع أن البحث اللساني عرف تغيرات وتطورات عديدة قادته من نظرية إلى أخرى إلا أنها جميعا اتفقت على مركزية الجملة، وكونها أكبر وحدة دلالية قابلة للدراسة، حتى اصطدم النقاش بإشكالية وصل المعنى بسياقه وربط أبعاد الظاهرة اللغوية، ليظهر جليا عجز الجملة عن مواكبة هذا الفكر الجديد، وأظهر البحث في العلاقات الداخلية المتشابكة للنص حاجة ماسة إلى تناول اللغة تناولا ألسنيا يتعدى حدود الجملة.

فظهرت الحاجة ملحة حينذاك للبحث عن مقاربة أكفأ تعالج قضايا اللغة، فكانت لسانيات النص الحل لذلك؛ حيث أخرجت البحث اللساني من ضيق الجملة إلى سعة النص، وسدت الثغرات التي عانت منها النظريات السابقة، وبينت إخفاق علم اللغة النظري والنحو التقليدي في الكشف عن خصوصية الأثر وتفاعله الداخلي؛ وقد رامت الجهود اللغوية في هذا المنهج اللساني النصي إلى تحقيق العلاقات القائمة في النص ودراسة التنظيم والترتيب الداخلي له والتنبه إلى الروابط التي تسهل على المنتج والمتلقي معا إدراك التماسك الداخلي للنص.

1.2 أهمية لسانيات النص:

لقد اعتبر الباحثون هذه النقلة أكثر من ضرورة لتخليص البحث اللساني من الجمود الذي عرفه لقرون متتالية، حيث تذكر د.خولة طالب الابراهيمي، في وصف النقلة من نحو الجملة إلى نحو النص: «إن الاتجاه إلى النص يعتبر فتحا جديدا في تاريخ اللسانيات الحديثة بالنظر لكونه التحول الأخير لأنه أخرجها نهائيا من مأزق الدراسات البنيوية التركيبية التي عجزت في الربط بين مختلف أبعاد الظاهرة اللغوية البنيوي الدلالي التداولي»[1]. والمتأمل في كلام الباحثة يستنتج عجز وقصور الدراسات التي ترتكز على الجملة كوحدة لغوية كبرى عن مجاراة الجوانب المختلفة من الظواهر اللغوية نظرا لعدم اهتمامها بأنظمة اللغة في سياقات الاتصال، في ظل تركيزها على دراسة الوحدة اللغوية دراسة بنائية وصفية، والتعويل عليها في استنباط الأحكام النحوية بعيدا عن الجانب الوظيفي التداولي التواصلي. وقد أبدى أكثر من باحث عدم رضاه عن ضيق ومحدودية مجال الدراسة اللغوية المتسمة بالتقطيع والتجزئة، ودعوا إلى توسيع منظور تلك الدراسات

.2.2 لمحة تاريخية عن انتقال لسانيات النص إلى العرب: اختلفت الآراء حول أول من حمل لواء هذا العلم للعرب، لكن يمكن الحديث عن أوائل من ولجوا هذا الباب من أمثال الدكتور سعيد البحيري ود. سعيد يقطين إذ كلاهما يؤكد

تعرفه على هذا العلم من خلال كتاب "علم النص مدخل متداخل الاختصاصات"، ويرجعون ذلك لسنة 1985. غير أن د.سعيد البحيري يعود ليؤكد في أحد إصداراته أن بدايات تعرفه على هذا العلم تعود إلى 1979[2].

فيما يذهب العديد من الباحثين إلى اعتبار البدايات الأولى لهذا العلم تعود للأستاذ الدكتور سعد مصلوح في بحثه الموسوم بـ "من نحو الجملة إلى نحو النص" الصادر سنة 1990 بالكويت، البحث الذي ورد ضمن كتاب للأستاذ عبد السلام هارون معلما ومؤلفا ومحققا، وهي مجموعة بحوث مهداة إلى الأستاذ عبد الرحمن هارون، والجدير بالذكر أن الدعوة إلى الانتقال من نحو الجملة إلى نحو النص. قد ورد لديه في عملين سابقين[3]، كما أورد الأستاذ د.حافظ إسماعيلي علوي في إحدى مقالاته[4] مقالة للدكتور عبد الرحمن بودرع أصدرها بتاريخ 1988، موسومة "بنظرية تحليل النص من خلال الأصول اللسانية".

غير أن أول البحوث العربية المفعلة لأدوات علم لغة النص نجدها في بحث انفتاح النص الروائي الذي صدرت طبعته الأولى سنة 1989 في الدار البيضاء. وعن الرسائل والأطروحات على رأسها رسالة ماجستير قدمها الأستاذ محمد خطابي موسومة "مظاهر انسجام الخطاب" سنة 1988 وقد نالت نصيبا وافرا من الاهتمام والدراسة من الباحثين.

3.أزمة التلقي: لا بد لنا من الاعتراف أن «كل انتقال إلى وسط جديد يطرح مشاكل علمية منهاجية وابستيمولوجية تستحق الطرح والتحليل والمدارسة»[5] ؛ وبموجب تلك المشاكل يصبح استنبات النظريات والأفكار أو نقلها وتبادلها أمرا معقدا، بالنظر إلى الملابسات التي تحف عملية الالتقاء بين الثقافتين الوافدة والمتقبلة؛ إذ من شأن قنوات التقبل أن تشكل المعرفة على نحو ربما انتهى إلى صياغتها صياغة مفارقة لهيئة تشكلها الأولى، لأن استثمارها في مقام جديد يطعمها برواسبه، ثم إن قنوات تلقي المعرفة موصولة بالسنن المعرفية التي تترسخ في المجتمع فتفتح للمعرفة أفق تقبل بمقتضاه يعرض عن تلك المعرفة أو يقبل عليها، ويسارع إليها أو يحترز منها[6]، ولا يمكننا بأي حال من الأحوال فصل النظريات عن سياقاتها لأنها وليدة الظروف التي أنتجتها، ولا بد بدلا من ذلك أخذ تلك السياقات بعين الاعتبار ثم محاولة تطويع النظريات لتوائم معطيات البيئة المستقبلة.

غير أن المتأمل لنشاط هذه النقلة يصدم بتذبذبها؛ فهي لم تستطع أن تجد سبيلا أو آلية ناجعة لضمان انتقال سلس لهذا البحث يُمكن من سبر أغواره وفهمه فهما وافيا فالباحث العربي يجد نفسه في مواجهة موج متلاطم من البحوث الجديدة كل يوم، فلا يكاد يصل إلى نقطة كانت تمثل المنتهى، إلا ليجد نفسه لا يزال بعيدا عن شاطئ، لينتهي الأمر بكثير منهم بأن يغرقوا قبل أن يقفوا على أرض صلبة .

وهذا ما يصفه الاستاذ نعمان بوقرة حين يقف على الحيرة الفكرية التي يعيشها الباحث العربي اللساني في مجابهته لفكر غربي مترامي الأطراف ويراهم في ذلك منقسمين إلى طائفتين: «أولهما متحصنة في قلعة التراث اللغوي وثانيهما مقبلة مستسلمة استسلاما تاما للمناهج اللسانية الغربية تحاول عبثا ولوج عالم الحداثة الفكرية دون أن تستقر على قرار، سقطت في هوة معرفية سحيقة إلى حد كبير، وهي تحاول الخروج عبثا؛ إذ كلما اعتقدت في نفسها استكمال آليات التفكير اللساني المحدثة ظهرت آليات وأطروحات جديدة، فالفكر اللغوي الغربي المتجدد والمتكاثر يضعهم في حيرة

منهجية وفكرية عددت مفاهيمهم وشتتت مصطلحاتهم»[7] . فينبهنا الباحث إلى إشكالية كبيرة تتمثل في عجز الباحثين العرب عن مواكبة التطور الرهيب الذي تعرفه العلوم الإنسانية بشكل عام والعلوم اللسانية بشكل خاص في البلدان المتطورة. تلك الإشكالية التي تتركنا دائما في حالة متتبع لاهث بحثا عن آخر الخيط الذي لا نجده أبدا خاصة مع الوتيرة البطيئة وغير المنظمة ولا المنسقة لعملية الترجمة عند العرب.

المشكلة إذن ليست في رفض اللسانيات بفروعها فقط، ولكن حتى المقبلون عليها لا يملكون الأدوات اللازمة لاستنباتها في بيئتنا العربية؛ أي لنقلها ولتطويرها لبلوغ مرحلة التأصيل؛ بناء لسانيات عربية معاصرة .

لا يشكل تنوع النماذج مشكلة مادامت كلها تصب في بوتقة النهضة بالفكر اللساني العربي لكن الإشكالية تطل برأسها عندما تتصادم هذه المصبات وينكر بعضها بعضا، وهو ما حدث للباحثين العرب الذين انقسموا إلى تيارين كبيرين مختلفين:

الأول كافر بالتجديد الذي جاءت به اللسانيات الحديثة، رافض للتواجد اللساني في البحث اللغوي العربي، والثاني نافر من كل قديم، شغوف بالجديد. ولكل أسبابه وتعليلاته.

1.3 التيار الرافض للسانيات النص وأسبابه:

«لأي شيء نستورد منهجا غربيا في دراسة اللغة ولنا منهجنا الخاص الأصيل الذي أثبت خلال ألف عام أو يزيد صلاحيته؟» هكذا يتساءل الباحث العربي الذي لا يجد سببا مقنعا يجعله يستورد منهجا أجنبيا لمعالجة لغة عربية وفكر لغوي عربي، ثم إن علم اللغة العام خاص باللغات الأوروبية التي تشترك في طبيعتها اللغوية وتتقارب في ظروفها الاجتماعية. أما اللغة العربية فهي خارج حدود هذا العلم، وقياسها على الدراسات اللغوية في أوروبا التي لا يزيد عمرها عن ثلاثة قرون والتي ليس لها مثل هذا التراث العربي الممعن في العراقة طولا وعرضا خطأ فادح لا يكون إلا عن جهل أو سوء فهم[8] . ثم إن اللسانيات انطلقت من دراسة اللغة أغلبها على اللغة العربية لأن اللسانيات بحث أوجدته ظروف اللغات الأوروبية التي تختلف في انتمائها وتكوينها وبيئاتها وشعوبها المتكلمة بها وتأريخها عن العربية وظروفها عن العربية وظروفها اختلافا كبيرا[9] . مما يستوجب أخذ هذه المعطيات بعين الاعتبار قبل الجزم بوجود نظرية نصية عربية تراثية أو حتى الحديث عن إرهاصات نصية.

وفي نظر المشككين في اللسانيات وقدرتها على التجاوب مع متطلبات اللغة العربية «قد يكون لهذه المحاولة ما يبررها في اللغات الأوروبية، ولكن إقحامها على لغة كالعربية تختلف في طبيعتها وفي ظروفها التاريخية والاجتماعية اختلافا أساسيا عن هذه اللغات بدع شاذ قليل الجدوى»[10] . وفي أحسن الحالات إن لم يعد شذوذا فهو يعد ترفا فكريا، يصف "د.محمود السعران" هؤلاء بقوله: «وخيرهم ظنا بهذه الدراسة الجديدة وبالقلة القائمة بها من أبناء العربية، يعد علم اللغة أو بعض فروعه؛ كعلم الأصوات اللغوية ترفا علميا لم يحن الأوان بعد للانغماس فيه والتطلع إليه»[11] . حتى أن من الباحثين من استشعر مسبقا رفض المتلقين لبحوثهم، فسجلوا توجساتهم في مقدماتهم مثلما حدث مع "د.عبد الرحمن أيوب" الذي سجل توجسه في مقدمة كتابه دراسات نقدية في النحو العربي جاء فيه: «أما كيف يتلقى الناس هذا الكتاب فإني أعلم مقدما أن منهم من سيعتبره كفرانا بثقافتنا التقليدية، وتجريحا لسلفنا اللغوي الصالح»[12]. ومن أسباب الرفض أيضا التي يمكن الإشارة إليها:

1. ادعاء القداسة للغة العربية نظرا لارتباطها بالقرآن الكريم.

2. النظر إلى اللسانيات على انها علم غربي دخيل على اللغة العربية.
3. ارتباط الدرس اللغوي الحديث بالجهود الاستشراقية ينظر إلى أصحابها بعين الريبة.
4. تطرف بعض المستشرقين من دعاة العامية مثلا او استبدال الحرف العربي بالحرف الغربي.
5. تحقير التيار المخالف للتراث العربي أو تغييبه.
6. التشكيك في امكانية ايجاد تطبيقات فعلية في اللغة العربية لهذه النظريات الجديدة.
7. الجهل بحيثيات الفكر اللساني العربي الحديث والمعاصر.

ومن أخطر ما أنجر عن هذا التعلق بالتراث تباطؤ خطوات البحث العربي اللساني «فإذا استقرينا تاريخ اللسانيات القصير نجد أنها واجهت بالفعل إشكال التجديد. ولكن جل اللسانيين لم يأتوا بالتجديد المطلوب »[13] وقد جعلوا من أنفسهم من حيث يعلمون أو يجهلون سجناء مناهج القدماء الذي لم يسمح لهم أن ينفتحوا على المستجدات الكثيرة في اللسانيات الحديثة.

2.3 التيار المتبني للسانيات النص وحججه:

أقبل كثير من الباحثين العرب على الدرس اللساني الغربي بحثا وتنظيرا، وشغفوا به وبكل فروعه خاصة اللسانيات النصية، باعتبارها من أحدث تلك الفروع، واعتبروه فتحا لغويا جديدا. على ان هذا التيار يمكن تقسيمه هو لآخر الى فئتين؛ أما الاولى ففئة تؤمن بأن البحث النصي بحث جديد غربي الأصل والنشأة، يمكن استيراده وتطبيقه على اللغة العربية.

وأما الفئة الثانية؛ فترى أن جذور اللسانيات النصية عربية بامتياز، وراحت تبحث في كنوز الموروث اللساني العربي على ما يثبت ذلك. مؤكدة أن الباحثين العرب القدماء بلغوا من الإبداع ما مكنهم من التبشير بهذا العلم تحت مسميات أخرى، وهذه الفئة « تستهدف دراسة الفكر اللغوي العربي القديم من حيث أنه تصورات ومفاهيم وطرائق تحليل في ضوء النظريات اللسانية الحديثة... والسمة المميزة لهذا النوع من الخطاب اللساني العربي الحديث هي سعيه إلى التوفيق بين مضامين التراث اللغوي العربي وما تقدمه اللسانيات الحديثة من نظرية ونماذج إجرائية وطرق تحليل »[14] . ويستعمل الباحثون في التراث شتى الوسائل المعرفية لتحقيق هذا المسعى في إطار ما عرف " بقراءة أو إعادة قراءة التراث"[15] . ولعل هذا ما جعل الباحث اللساني "مصطفى غلفان" يطلق عليها مصطلح " لسانيات التراث."

3.3الممارسة النصية عند العلماء العرب القدماء:

لا يمكن أن ننكر وجود ممارسة لسانية نصية في الأعمال التراثية الناتجة عن اهتمام النقاد و البلاغيين والأصوليين والمفسرين والنحويين بالنص، كل من زاويته حتى أضحى التراث اللغوي العربي غنيا بالممارسات النصية؛ تذوقا وفهما وتحليلا وتفسيرا سواء على مستوى التنظير أو التطبيق وأغلبها إن لم نقل كلها تنطلق من النص المقدس؛ القرآن الكريم، ولعل ذلك ما جعل د. نصر أحمد أبو زيد يصف حضارة العرب بحضارة النص. رغم أنه ليس من اليسير لمتتبع مفهوم النص عند القدماء أن يصل إلى تعريف واحد ودقيق ومحدد له؛ «وهي صعوبة لا ترجع إلى فقر لغوي أو ضعف نظري وعجز منهجي عند اللغويين والنقاد والبلاغيين العرب، بل تعود إلى ارتباط المصطلح في لحظة ثقافية ومعرفية بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف واستمر العرب بتسمية نتاجاتهم النصية وأشكالهم الخطابية المختلفة بأسماء ومصطلحات

مغايرة »[16]، لذلك ظل مصطلح النص متصلا في تداوله بالخطابين المقدسين، ولعل ذلك ما جعلهم يكتفون بالإشارة إلى دلالته المفهومية دون تحديده أو ضبطه بمصطلح معين. وهذا ما جعل الكثير من الباحثين يؤكد "أن ما جاء في التراث اللساني العربي يحمل من الوعي المتعلق بدراسة النصوص ما يجعلهم من المؤسسين الحقيقيين للدراسة النصية كما هي عليه الآن فيما يسمى بنحو النص أو لسانيات النص وتحليل الخطاب[17].

ويؤكد د. محمد عبد الباسط أن الظروف كانت مهيأة أمام علماء القرآن للانفتاح على النص متجاوزين حتى طرح هاريس لأنهم لم يكتفوا بالاعتناء بالنص فقط بل تجاوزوه إلى «العناية البالغة بأسباب النزول وبالسياق الثقافي والاجتماعي؛ فالنص اللغوي في هذا المنظار أداة لممارسة الفعل للمتلقي كي يستجيب لمنظومة من الأوامر والنواهي التي تحدد حظ المؤمن من التقوى»[18]، وذلك ما سمح لعلماء القرآن أن يمارسوا الدراسة النصية ممارسة فعلية كاملة في معالجتهم للقرآن الكريم« فتجلى المنهج النصي على أيديهم بيانا ساطعا ... وتجاوز حدود الجملة إلى الخطاب فقد وجدوا أنفسهم آمنوا بداية باتساقه وانسجامه، وكان لذلك صدى في مقاربتهم التي اختلفت عن غيرها من المقاربات التراثية»[19].

إذن فقد توافرت لعلماء القرآن الكريم الظروف التي تدفع بهم إلى تجاوز حدود الجملة لكون القرآن الكريم أولا لا يقوم على نظام الجمل بل الآيات، ثم يفسر بعضه بعضا، ويكمل بعضه بعضا، وينفتح بعضه على بعضه الآخر، مما يجعل النظر إلى الجزئيات بمعزل عن الكلية قد يسبب خللا، وهذا ما اضطر المفسرين والباحثين في القرآن الكريم إلى الانطلاق أولا من اعتباره كلا متكاملا وخطابا منسجما مترابطا، يتصل بعضه ببعض ولا تنكشف الدلالة بين أجزائه إلا بعد تحديد العلاقات المختلفة القائمة على نسيج آياته وسوره.

ومن الدراسات ذات المنحى النصي البارزة في التراث العربي، الدراسات القرآنية وأصول الفقه التي قدمت منهجا متميزا يؤمن بالشمولية والكلية التي تسم النص القرآني، والتي لا يمكن بلوغ مقاصده إلا بالنظر إلى كليته ورصد وسائل الربط والتماسك فيه، وقد أكد الدارسون العرب القدماء كالباقلاني مثلا على أن تفرد أسلوب القرآن الكريم إما يكمن في أسلوبه الذي يسير على نمط متجانس دونما إخلال أو اضطراب أو تفاوت بين أجزائه. ومن الدراسات القرآنية التي ترقى إلى مستوى النصية كتاب البرهان في علوم القرآن للزركشي (794هـ)، والاتقان في علوم القرآن للسيوطي(911هـ).

أما فيما يخص الدراسات النحوية، فرغم غياب مصطلح النص في اعمالهم إلا أننا نلاحظ ملامح الدراسة النصية التي تتمحور حول القرآن الكريم أحسن مثال على هذا المنهج كتاب [20]معاني القرآن وإعرابه للزجاج، وإعراب القرآن للباقلاني. غير أن نضوج هذا المنهج كان على يدي الجرجاني(471) الذي يعد أول من أخرج النحو من نطاق شكليته وسما به فوق الخلافات حول البناء والاعراب؛ إذ أخضع النحو لفكرة النظم حيث قال: « معلوم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يتطلبه علم النحو» فالجرجاني ينظر في الإعراب إلى ما هو أعمق من الحركات في آخر الكلمات إنه ينظر إلى نظم الكلمات؛ إذ يؤمن أن للكلم نظما أن رعاية هذا النظم هي السبيل إلى الإبانة.

أما عن البلاغة فيرى صبحي ابراهيم الفقي أن «موقف البلاغيين كان غير موقف النحاة، فقد انطلقت مباحث عديدة في علم البلاغة من مطلق المعالجة النصية مثل الإيجاز والفصل والوصل وغيرها، بل إن نظرية النظم نفسها أكدت التضام والاتساق بين الكلمة الألى والثانية إلى نهاية المعنى المراد »[21]، مما جعل المنهج النصي أكثر وضوحا في الدراسات البلاغية منه في الدراسات النحوية، ولعل أشهر تلك الدراسات ما جاء به السكاكي والجاحظ.

وقد رد كثير من الباحثين على هذه الفئة ليس من منطلق رفض اللسانيات التراثية أو اللسانيات الحديثة والمعاصرة ولكن من منطلق رفض الخلط المنهجي والمصطلحي والمفاهيمي بين عصرين مختلفين، ويمكن أن نصطلح على التوجه المخالف للسانيات التراثية بلسانيات التبني؛ لأنها أقبلت بشغف على كل منتج فكري لساني غربي كأنما يتبنى ذلك الفكر ويحتضنه ويؤمن إيمانا عميقا بضرورة إعادة وصف اللغة العربية وصفا ألسنيا بعيدا عن أي موروث لغوي مهما كان حضوره .

لهذا فإنه ومهما زاد تقديرنا للجهود الجبارة والخلاقة التي اتسم بها سلفنا في مقارباتهم اللغوية «فهذا لا يعني مطلقا أن الأفكار الحداثية التي جاءت بها اللسانيات منذ بداية القرن العشرين موجودة في تراثنا اللغوية .إن مشكلة كل من يدعي إسقاط المقاربات اللسانية على الفكر اللغوي التراثي العربي بشكل تلقائي وسطحي هي أنه لم يستوعب بعد أو لا يريد أن يستوعب حقيقة التحليل اللساني المتمثل في تحليل البنيات اللغوية وفق نموذج نظري محدد»[22]، وليس في هذا الطرح أي انقاص من قدر أو أهمية الدراسات اللغوية التراثية، ولكنه يلفت انتباهنا إلى الفروق المنهجية في التحليل اللساني بين العصرين وضرورة احترام السياق الحضاري الذي رافق الدراسات.

إن الفرق بين الدرس اللغوي العربي والغربي يبدأ من تحديد المنطلقات والأهداف ذلك أن المعروف عن الدرس اللغوي العربي ارتباطه الوثيق بالمرجعية الدينية فلا ينكر عارف بالثقافة العربية أن كل علوم اللغة انطلقت من القرآن لتصل إليه فهما واستيعابا وتعليما فلم يكن الدرس اللغوي هدفا منشودا بقدر ما مثل وسيلة لتحقيق هدف ديني محدد .يتناقض هذا الأمر مع جوهر اللسانيات التي دافعت عن أطروحة دراسة اللغة لذاتها وبذاتها باعتبارها وسيلة في حد ذاتها لا مطية لهدف آخر مهما كان نبيلا؛ وهنا «تتجلى القطيعة الحاسمة بين اللسانيات والفكر اللغوي القديم في المتطلبات النظرية والمنهجية التي طرحتها اللسانيات والمتعلقة أساسا بتحديد موضوع وضبط المفاهيم والأدوات الإجرائية، وتكوين مصطلحية خاصة بها، فضلا عن الرغبة المنهجية في استقلالية اللسانيات ذاتها، والاستفادة من النتائج المحصل عليها في العلوم الأخرى، سواء أكانت علوما إنسانية أم علوما دقيقة»[23]. فالفرق الجوهري بين الدراسات اللغوية العربية وغيرها من الدراسات اللغوية الحديثة والمعاصرة يكمن أولا في اختلاف المنطلقات والأهداف.

وبعد موجة الرفض التي قوبلت بها اللسانيات الغربية بوجه عام ولسانيات النص بوجه خاص، وجد المقبلون عليها من العرب أنفسهم مضطرين للدفاع عن توجههم ورد التهم التي ألقيت عليهم من جملة ردودهم على المشككين والرافضين لاستنبات اللسانيات الغربية عموما أو تطبيقها على اللغة العربية نذكر النقاط التالية :

أما رفضه بدعوى أنه علم غربي، فلا يجب أن نتجاهل أن العلم نتاج تراكمي " منطلقه فلسفي وهدفه نفعي براغماتي "[24] لذلك من المستبعد أن تستقل حضارة بعينها بعلم وإنما هو ملك حضارة الإنسان المعاصر بعيدا عن حدود الجنس، الهوية، والعرق.

إن الفجوة بين اللسانيات والموروث الفكري العربي قائمة على فكرة خاطئة هي أن اللسانيات الحديثة بديل عن الفكر اللغوي العربي الموروث، وأن لسانيات النص إنما استقدمت للقضاء على نحو الجملة التقليدي، وسد هذه الفجوة يكون بتوضيح أن «اللسانيات علم صديق لكل الدراسات اللغوية على مختلف لغاتها؛ لأنها علم شكل ومنهج وأسلوب وطريقة معالجة وبحث، وليست بالضرورة الحتمية فكرا جديدا، فهي كأي أداة حضارية يستعملها البشر من غير التفكير

بفكر صانعها مثل السيارة أو أي آلة أخرى، وهذا يعني أن اللسانيات ليست بديلا عن النحو العتيد ولا الصرف التليد ولا المعجم المجيد»[25] ، بل يمكن أن تمثل إضافة نوعية تخدم هذه اللغة وتلمع ماضيها وتجعله فكرا متجددا متناسبا مع العصر فهي إن دخلت هذه العلوم أعادت تنسيقها وتحديثها، لتخرج بثوب جديد لكنه لا يلغي الأصول الصحيحة ، ويقرب الدكتور حسن الملخ هذه الفكرة بمثل يضربه باعتبار "الموروث اللغوي العربي برج شامخ قديم يحتاج إلى كهرباء تضيء بداخله ،ولون يزهو به، وتغيير بعض النوافذ وتحوير بعض المرافق والغرف لكي يبقى صامدا"[26] . إن أشد ما يُؤخذ على اللسانيات النصية عند العرب اتهامها بأنها تريد محو النحو العربي الذي وتعودنا عليه حتى كدنا نقدسه، والحقيقة أن اللغة لا يمكن أن تستغني عن قانون يضبطها، غير أن التعديلات أو إضافات لا تمنع النحو ولكن تجعله يساير روح العصر فكيف نؤمن بأن اللغة حية ونسميها كذلك ثم نكفر بنحو حي؟

ثم لا بد من التفريق بين اللغة وعلومها، اللغة حية بحياة أهلها المتكلمين بها، تتفاعل معهم تقوى بقوتهم وتضعف بضعفهم وتراجعهم، وتبقي ما بقي أهلها، لكن علم اللغة أداة تستعمل للكشف عن حقائق اللغة لوصفها ولتفسيرها ولتيسير تعلمها، وهذه الآليات يمكن أن تتغير وتستبدل بأخرى كلما استدعت الحاجة إلى ذلك وهذا التحديث يخدم اللغة ولا يضرها.

ومما أخذ على لسانيات النص كذلك تعدد مدخلاتها وتنوع مشاربها وتخصصاتها وهذا ما يجعل من تطبيقها او محاولة تفعيلها رهانا صعبا، وهنا نتساءل لماذا رأينا في في هذا التنوع عرقة بدلا من أن نرى فيه ثراءً وخصوبة تفتح آفاقا جديدة أمام الدرس اللغوي العربي وتحليل النصوص.

4. خاتمة:

إن أبرز النتائج التي توصل إليها هذا البحث يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

لسانيات النص علم غربي النشأة و التطور، وقد استقدم إلى العرب قبل ما يقارب نصف قرن من الزمن.

انقسم اللسانيون العرب بين متبن لهذا الوافد الجديد مهلل له، ساع إلى تطبيقه على النصوص العربية، وهذه فئة تنظر إليه على أنه متنفس جديد للدرس اللساني العربي، ومخلص له من الجمود الذي أثقله لأحقاب طويلة.

وفئة ثانية ترى في هذا الوافد تشويها للنصوص العربية التي لا يليق بها إلا نحوها العربي التقليدي الذي ساهمت جهود العلماء العرب عبر أحقاب من الزمن في نسجه ليتناسب مع خصوصية اللغة العربية، في حين أن نحو النص وُجد ليتناسب مع لغة غير الغربية.

وأما الفئة الثالثة فلا ترى في هذا الوافد أي جديد يذكر وإنما هي بضاعتنا وقد ردت إلينا في ثوب قشيب، ويتفننون في تحليل التراث العربي وإثبات أسبقيته في الوصول إلى النتائج ذاتها التي يتبناها علم النص، مع الاعتراف ضمنيا ان العرب لم يسموا هذه النظرية ولم يؤطروها في إطار واضح مستقل.

أكبر ما يفتقر إليه الفكر اللساني العربي هو سياسة تخطيطية لغوية سليمة، تنتهج يشكل قطبي موحد، يمثله مجمع لساني عربي يتولى مسؤولية التخطيط والتقرير. في حين تصبح الجامعات في شتى الأقطار فروعا وامتدادات له ومخابر علمية تغذيه بما تصل إليه عقول الباحثين؛ ليستحيل مكتبة كبرى تصفي وتصنف وتنظم الملتقيات الكبرى؛ لمناقشة الإشكاليات التي تواجه الباحثين اللسانيين العرب.

5. قائمة الإحالات:

[1].خولة طالب الابراهيمي، مبادئ في اللسانيات، ص 49.

[2]. ينظر: كلاوس برينكر، التحليل اللغوي للنص (مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج) تر.سعيد البحيري، مؤسسة المختار للنشر والتوريع، ط1 القاهرة 1425،2005هـ، ص11.

[3]. أورد عبد السلام سيد حامد في بحثه نحو النص عن سعد مصلوح ،عملين سابقين لسعد مصلوح أشار فيهما إلى نحو النص؛ أولهما: الاسلوب دراسة لغوية إحصائية، والثاني :العلاقة بين البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية.

[4]. أوردها اد. حافظ إسماعيل العلوي في مقالة بعنوان عندما تسافر النظرية "لسانيات النص نموذجا الصادرة بمجلة جسور، ص13.

[5]. محمد مفتاح وأحمد بوحسن، انتقال النظريات والمفاهيم، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 76، 1999،(التقديم).

[6]. حافظ إسماعيلي علوي، عندما تسافر النظرية، لسانيات النص أنموذجا، جسور، يناير 2012/صفر1433

[7]. نعمان بوقرة، الدراسات السانية في السعودية، دراسة وصفية تأصيلية في ضوء التلقي العربي للمناهج اللسانية الحديثة، عالم الكتب، أربد الأردن ص 26.

[8]. محمد حسين، مقالات في الأدب واللغة، ص48.

[9]. رشيد عبد الرحمن العبيدي، الألسنية المعاصرة والعربية مجلة الذخائر العدد1 2000، ص 31؛

[10]. محمد حسين، مرجع سابق، ص54.

[11]. علم اللغة، مقدمة للقارئ العربي،د. محمد سعران، نقلا عن فاطمة بكوش، نشأة الدرس العربي، ص16.

[12].المرجع نفسه، ص17.

[13]. الفاسي الفهري، اللسانيات واللغة العربية، ص51.

[14]. مصطفى غلفان، اللسانيات العربية الحديثة، أسئلة المنهج، ص 184.

[15].المرجع نفسه، 184.

[16]يوسف إدريسي، النص في التراث النقدي عند العرب– المفهوم والابدالات– مجلة ام اللوم اللغات وآدابها، ع17،2016، ص344

[17].إياد عبد الله، زينة العبيدي، مفهوم النص في التراث العربي ، خطوة في تكامل المنهج النقلي والعقلي ، مجلة العبقري، ع10، 2017، ص118.

[18].محمد عبد الباسط عبد، النص والخطاب في علوم القرآن، مكتبة الآداب القاهرة،ط1 ،2009،ص18

[19].المرجع نفسه ،ص19

[20].الجرجاني، دلائل الاعجاز، ص155.

[21].صبحي ابراهيم الفقي، علم لغة النص بين النظرية والتطبيق، ص50

[22]. المرجع نفسه، ص 50.

[23]. المرجع نفسه، ص 16.

[24].ينظر: مازن الوعر، دراسات لسانية تطبيقية ص39، نقلا عن حافظ إسماعيل العلوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي، ص89.

[25]. مصطفى غلفان، مرجع سابق، ص15.

[26].ينظر: حسن الملخ، مرجع سابق، ص12.